Three Cases of Disease in Stone Ages in the Eastern Mediterranean

Zaidan Kafafi

Abstract

This paper aims at shedding light on three illness cases; Paraplegia, cerebral hemorrhage, and tuberculosis. They were encountered at three sites in the Ancient Near East belonging to the prehistoric eras; Cave Shanidar in Kurdistan/Iraq dated to a period ranging from (ca. 80000 to 35000 BP), Tell Esultan/Jericho in Palestine belonging to the Pre-Pottery Neolithic Period (ca. 10500 - 8000 BP) and 'Ain Ghazal/ Jordan dated to (ca. 8000 - 7600 BP).

We believe in order to t understand development of ancient civilizations, the researcher have to pay more attention to the environment where people started their settlements. In addition, to study in which way the inhabitants of those settlements reacted to the climatic and environmental changes and fluctuations.

Key words: environment, pandemics, paraplegia, cerebral hemorrhage, and tuberculosis.

ثلاث حالات مرضية في العصور الحجرية في شرقي المتوسط

زيـــــدان عـبـدالـكـافـي كـفـافـي

أستـاذ، جـامـعـة الـيـرمـوك، الأردن

الملخص

يقدم هذا البحث معلومات حول ثلاث حالات مرضية، هي: الشلل، ونزيف في الدماغ، والسل، ظهرت في ثلاثة مواقع مختلفة، هي: شانيدر في كردستان العراق، وتل السلطان/ أريحا في فلسطين، وعين غزال في الأردن. وتؤرخ جميعها لفترات ما قبل التاريخ؛ إذ ظهرت حالة الشلل بين مجتمعات النياندرتال وتؤرخ للفترة بين نحو 80000 و35000 سنة من الوقت الحاضر، بينما تعود الحالة الثانية بين المجتمعات الزراعية لأكثر من نحو عشرة آلاف عام، والثالثة في المجتمعات الزراعية، وتؤرخ لنحو ثمانية آلاف عام من الحاضر.

وحتى نستطيع فهم المظاهر الإنسانية الحضارية وتطوراتها، أو لنقل التطورات الثقافية وما واجهته البشرية من أمراض وأوبئة عبر العصور، يجب علينا دراسة وفهم البيئة التي نشأت فيها هذه الحضارات والطريقة التي تفاعل فيها الإنسان مع هذه البيئات.

الكلمات المفتاحية: البيئة، الأوبئة، الشلل، النزيف الدماغي، السل.

المقدمة

وفرت البيئة للإنسان منذ بدء الخليقة مجموعة من الإمكانيات الطبيعية والمادية فتفاعل معها، وأخذ منها ما يلزمه باستخدام طرق ووسائل تعددت وتطورت عبر العصور حتى وصلنا في الوقت الحاضر إلى الثورة الرقمية. وهنا يظهر أثر البيئة التي عاش فيها الإنسان في كيفية حياته اليومية، ومدى تكيفه وتأقلمه معها. وكأي مخلوق على وجه هذه البسيطة يتعرض الإنسان لوعكات صحية وأمراض مستعصية، يكون أغلبها ناتجاً من طبيعة المكان الذي عاش ويعيش فيه، فمثلاً تكثر الملاريا بين سكان المستنقعات. فهناك اختلاف في طبيعة معيشة الناس الذين يسكنون على شاطئ بحيرة أو ضفاف نهر ومستواهم الثقافي عن غيرهم من سكان الصحراء أو المناطق الجبلية. إن توفر المياه الدائمة والمواد الخام التي يحتاج إليها الإنسان لصناعة أدواته يعدّ من العوامل المهمة التي تساعد الإنسان على الاستقرار في مناطق معينة والاستمرار فيه.

فكيف تعامل الإنسان الذي عاش في العصور الحجرية مع الأمراض؛ أفاستخدم السحر أم ذهب إلى الطبيعة وحاول أن يستفيد منها في توفير دواء له، فجاء التداوي بالأعشاب. وبتقدم معرفة الإنسان بوسائل معالجة الأمراض وطرقها مع مرور الزمان، أصبحت هذه تشكل جزءاً من الثقافة الإنسانية، لا يزال بعضها متوارثاً حتى الوقت الحاضر.

وحتى نستطيع فهم المظاهر الإنسانية الحضارية وتطوراتها، أو لنقل التطورات الثقافية وما واجهته البشرية من أمراض وأوبئة عبر العصور، يجب علينا دراسة وفهم البيئة التي نشأت فيها هذه الحضارات والطريقة التي تفاعل فيها الناس مع هذه البيئة. لكننا يجب أن لا ننسى التحولات البيئية الناتجة من التغيرات المناخية عبر العصور، ففي عصور ما قبل التاريخ اختلف المناخ من فترة إلى أخرى، وأكبر دليل على ذلك الزحوفات الجليدية في زمن البلايستوسين؛ حيث زحف الجليد من مناطق أواسط أوروبا إلى المحيط المتجمد الشمالي، وكيف أدى هذا إلى تغير بيئي كلي أثر بشكل كبير على طبيعة الحياة في منطقة البحر المتوسط. كذلك، فإن كثيراً من المناطق الطبيعية القديمة التي كانت موئلاً للغابات الشجرية والحيوانات البرية، أصبحت قفاراً، وتحولت إلى صحار نتيجة للعوامل الطبيعية أو البشرية. علماً أن انتقال العدوى بين الناس أصبح مختلفاً جداً في الوقت المعاصر؛ لسهولة التواصل بين المجتمعات البشرية، وهذا مما يساعد في انتشار الأمراض الوبائية منها

بشكل خاص. لقد حاول بعض الباحثين وضع تصور لطبيعة حياة الناس والبيئة خلال العصور الحجرية [1].

وبعد أن استقر الإنسان في قرى ثابتة في أول الأمر تحول بعضها إلى مدن كبيرة في نحو منتصف الألف الرابع قبل الميلاد، رافقه ظهور منظومات اقتصادية جديدة، والتحول من مجتمع المساواة بين مجموعة من الأفراد عاشوا على شكل مجموعة متكافلة متضامنة في العصور الحجرية القديمة إلى ظهور المجتمعات المركبة (Complex Societies) في مجتمع المدينة. فبالإضافة إلى نظام زراعي متكامل مارسته الشعوب في شرقي المتوسط قبل عشرة آلاف سنة، أصبح هناك تبادل تجاري بين المناطق البعيدة، وهذا بدوره عامل مهمّ في نقل الأمراض وانتشارها بين الناس.

إن الشرق الأدنى القديم هو مهد الحضارات الإنسانية، وفيه تنوع بيئي كبير؛ فهناك البحار والأنهار والسهول والجبال والبوادي والصحارى (شكل 1). هذا التنوع أدى إلى تكدس الناس في مناطق؛ وهو ما ساعد على انتشار الأمراض بينهم، أو السكنى في البوادي والصحارى؛ حيث تقل الأمراض، لكن بالمقابل تقل العناية الصحية والنظافة.

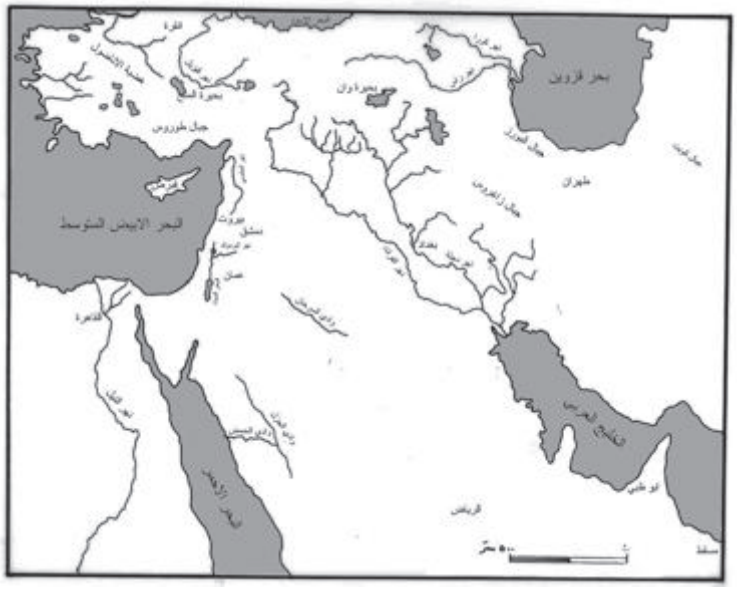

(شكل1): خريطة الشرق الأدنى القديم

وسنركز في هذا البحث على تقديم معلومات موجزة؛ لعدم تخصصنا بالأمراض، لكن اخترنا أن تكون من ثلاث بيئات وفترات مختلفة؛ الحالة الأولى من كهف شانيدر بجبال كردستان العراق (قبل نحو 40 ألف سنة)، والثانية من تل السلطان/ أريحا بغور الأردن (قبل نحو 12 ألف سنة)، والثالثة من موقع عين غزال بحوض نهر الزرقاء (قبل أكثر من تسعة آلاف سنة). كما أن الحالات المرضية الثلاث تختلف في طبيعتها؛ فالأولى مرض الشلل، والثانية النزيف في الدماغ، والثالثة والأخيرة مرض السل. لكن قبل أن نبحثها وجدنا أنه من اللازم أن نتحدث الخطوات الأولى للإنسان على وجه الأرض.

بداية الحياة الإنسانية

شغل موضوع بدء الحياة الإنسانية على وجه الأرض كثيراً من الباحثين، بخاصة إذا ما علمنا أن هذا الأمر يتطلب دراسة شاملة للكون الذي نعيش فيه بقضّه وقضيضه. ونتيجة لهذه الدراسات وضعت مجموعة من التفسيرات والإجابات عن أسئلة طرحت حول بداية الحياة الإنسانية من حيث نشأتها وطبيعتها، وجاء أغلبها في بداية الأمر أقرب إلى الأسطورة منه إلى الحقيقة وجانب الدقة.

وخير مثال على هذا أن بعض رجال الدين التوراتيين حاول كشف كنه الكون بالاعتماد على ما ورد في التوارة من معلومات حول بدء الخليقة. ونشر هؤلاء دراسة في القرن التاسع عشر، مفادها أن الكون قد خلق في سنة 4004 قبل الميلاد. لكن هذه المعلومة لم تصمد طويلاً أمام الأبحاث العلمية التي قام بها علماء الجيولوجيا الذين لاحظوا من خلال نتائج أعمالهم الميدانية وجود بقايا ومخلفات إنسانية وحيوانية ونباتية، سواء أكانت متحجرة أم غير متحجرة، وبعضها منقرض، في طبقات جيولوجية سحيقة القدم. كما رفض الجيولوجيون القول: إن بأن انقراض بعض الأنواع سببه طوفان نوح، معللين هذا بأن هذه البقايا وجدت في بعض الأحيان منفصلاً بعضها عن بعض في طبقات وتكونات جيولوجية يختلف عمر الطبقة عن الأخرى آلاف السنين أو ملايينها؛ مما أكد لهم أنها لم تنقرض في الوقت نفسه[2]. ومهما يكن من قول، فإن العلماء في الوقت الحالي يعتمدون دراسة المستحثات القديمة (Fossils) من بين الأسس التي تتبع في تفسير كيفية ظهور

الحياة وأشكالها وتطورها على وجه البسيطة. ومن المعروف أنه من الممكن أن تحافظ هذه المستحثات على تركيبها الكيميائي الأصلي، ودون تبدل أو أن يدخل في تركيبها مواد رسوبية؛ مما يؤدي إلى تحجرها مع مرور الزمن.

كذلك فإن لكل نوع من الأنواع الحيوانية أو النباتية المتحجرة دلالة على البيئة القديمة التي عاشت فيها. وهذا يعني أن لكل نوع من أنواع النباتات والحيوانات بيئة تناسبه وتساعده على العيش فيها ويعرفها العلماء، فإذا ما عرفوا نوع الحيوان أو النبات فإنهم يستطيعون تقرير شكل البيئة والمناخ والتقلبات المناخية التي عاشت فيها. وأكثر من ذلك، فإنه من خلال دراسة هذه المستحثات استطاع العلماء تحديد سلم زمني لتطور الحياة على وجه الأرض؛ فنجد أنهم يقترحون أن الانفجار الطبيعي الأول قد حصل منذ نحو(15) مليار سنة، وأن المجموعة الشمسية قد تكونت منذ (5) مليارات سنة، والأرض قبل نحو (4,5) مليار سنة، ومنذ (3,5) مليار سنة بدأ توزيع المحيطات واليابسة. كذلك يتابعون أن الخلية الحية الأولى والنباتات البحرية والحيوانات اللافقارية قد بدأت منذ (3,2) مليار سنة تبعها ظهور الزواحف؛ ومن ثم الرئيسيات والإنسان ونتيجة لعوامل بيئية وطبيعية كثيرة، مثل الحركات الجيولوجية وانحسار البحار والمحيطات وظهور السلاسل الجبلية والصحارى انقرضت أنواع كثيرة من الكائنات الحية بسبب عدم قدرتها على التكيف مع البيئات الجديدة. لكن في الفترة الواقعة بين 245 مليون ومليون عام أخذت الأرض شكلاً قريباً من شكلها الحالي، كما سادت ظروف بيئية جديدة ساعدت على ظهور مجموعات حيوانية ونباتية جديدة. إن ما يهم الدارسين والمهتمين بدارسة الكون هو دراسة الحقبة الجيولوجية الأخيرة، المسماة السينوزي (Cenozoic)، التي بدأت قبل نحو 65 مليون عام ولا تزال مستمرة، وهي تقسم جيولوجياً إلى قسمين، هما:

1 – الزمن الثلاثي: (يؤرخ للفترة الواقعة بين 65 مليوناً و3 ملايين سنة).

2 – الزمن الرباعي: (بدأ منذ 3 ملايين سنة ولا يزال مستمراً) [3].

ظهور الإنسان (Origins of Mankind)

حاول العلماء وبخاصة في القرن التاسع عشر، فهم ظهور الإنسان بمعزل عن الدراسات الميثولوجية التي كانت سائدة في حينه، علماً أن الفلاسفة اليونان قد حاولوا في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد سبر غور هذه المشكلة [4]. كذلك فإن كثيراً من علماء المسلمين من أمثال إخوان الصفا وابن سينا وابن رشد وابن مسكويه قد نظروا إلى الإنسان في إطار العلوم الطبيعية وقوانينها المادية.

لكن حال الدراسات المتعلقة بالإنسان اختلفت في القرن التاسع عشر؛ إذ ظهر تيار علمي أخذ على عاتقه اتباع منهج بحث علمي معمق يعتمد على الأعمال الميدانية والمخبرية. وكانت نتيجة هذه الدراسات أن خرج العلماء بنظرية التطور (Evolution)؛ أي أن الإنسان تطور بشكله وفكره عبر ملايين السنين حتى وصل إلى ما هو عليه، ومن الذين دعموا هذه النظرية العالم الفرنسي ج. لامارك (1744–1829) (J. B. de Lamark). وبعد هذا وفي عام (1859) نشر العالم الإنجليزي تشارلز داروين (Charles Darwin) الذي عاش بين 1808 و1882م كتابه المعروف باسم (أصل الأنواع) (The Origin of Species)، أتبعه بكتاب نشر في عام (1871م)، عنوانه (سلالة الإنسان (Descent of Man، ونادى في هذين الكتابين بتطور شكل الإنسان عبر ملايين السنين، وأن البقاء للأقوى والأفضل. وأن عالم الحياة غير ثابت، كما أن الأنواع الحية تتبدل باستمرار وبشكل بطيء وتدريجي، علماً أن الأحياء جميعها تشترك في أصل واحد. وقد قام المهتمون بهذه النظرية في العصور الحديثة بإعادة دراسة نظرية داروين وإجراء تصحيحات عليها، ووضعوا مجموعة من التساؤلات حولها، منها: كيف يحصل التطور على الأنواع؟ وما العناصر المؤثرة فيها؟ وما دور الصفات الموروثه في عمليات التطور هذه؟

وعلى أية حال فإن هذه النظرية لم تجد قبولاً من جميع الناس وبخاصة رجال الدين، ولكننا نرى أن المعرفة بالشيء أفضل من الجهل به. كذلك لا بد من القول إن بعضاً من البقايا الإنسانية التي خضعت للدراسة قد عثر عليها في عدد من المناطق في العالم؛ مثل ما عثر عليه في عام 1856م في وادي نياندر (Neander) في ألمانيا، وأطلق عليه اسم

نياندرتال (شكل 2)، وفي عام 1868م في منطقة كرومانيون (Cro-Magnon) في جنوب غربي فرنسا، وفي عام 1890م في جاوا في إندونيسيا.

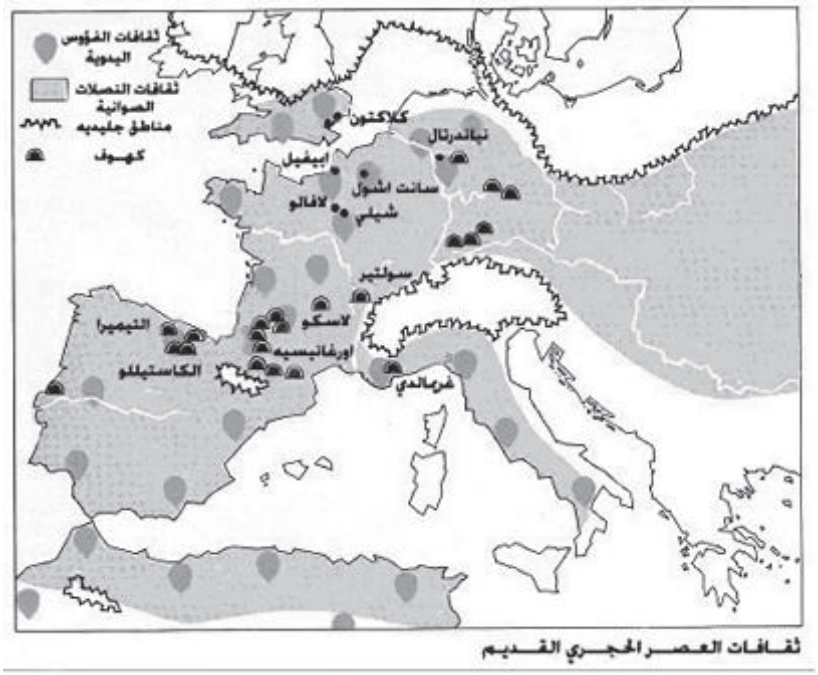

(شكل 2): أهم مواقع العصور الحجرية القديمة في أوروبا

عثر عالم المستحاثات السويدي بيرغر بوهلن (Bürger Bohlin) في عام 1927 في كهف شوكوتيان (Chou-kou-tien) قرب العاصمة بكين في الصين على ضرسٍ إنساني متحجرٍ وأعطاه للطبيب الهولندي (ديفدسون بلاك) الذي أطلق عليه اسمً (Sinanthropus Pekinses). كما عُثر على بقايا للإنسان أو للرئيسيات في مناطق إفريقية متعددة، نذكر منها جنوب إفريقيا وأثيوبيا وكينيا وتنزانيا وآخرها تشاد. وهدفنا في هذا المقام أن نقدم المعلومة البسيطة، ونترك الصفات الإنسانية لدارسي الطب والأنثروبولوجيا العضوية.

ينتمي الإنسان إلى المملكة الحيوانية، التي تتفرع عنها شعبة الفقاريات، منها صنف الثدييات التي تفرعت عنها الرئيسيات التي خرجت منها فصيلة الإنسانيات

(Homonidae)، ومنها تفرع جنس الإنسان (Homo) الذي هو أصـل الإنسـان العاقل (Homo-sapiens-sapiens). ولتحديد طبيعة علاقة الإنسان مع الرئيسيات، قام العلماء بدراسة الصفات المشتركة بينهما، خاصة بين أحافير الرئيسيات القديمة والإنسان القديم. وتبين لهم أن الرئيسيات المعاصرة، وبخاصة الغوريللا أو الشمبانزي، هي شديدة القرابة إلى الإنسان؛ من حيث شكل الوجه وحجم الدماغ المتطور وبنية الأطراف والفكين والأسنان والهيكل العظمي والجهاز العصبي والزمرة الدموية ونظام نزول البويضة والقدرة على إظهار المشاعر النفسية كالفرح أو الحزن أو الغضب والتفاهم عبر الأصوات. ويعتقد العلماء أن القرد المصري (Aegyptopithecus) هو أحد أقدم الرئيسيات الحفرية، ووجدت بقايا من هيكل عظمي تخصه في الفيوم في مصر، قدر عمرها بنحو (30) ثلاثين مليون سنة، وأنه الجد الأعلى للقردة العليا المعاصرة (الشمبانزي والغوريللا والأورانجوتان والجيبون). ويذكر الباحثون أنه قد تطور عن هذا القرد قرد آخر يعرف باسم (القرد الشجري Dryopithecus)، وكان هذا قبل نحو (20) عشرين مليون سنة [5].

وعلى الرغم مما ذكر ، فإنه – في رأينا وتأكيداً لما ما ذكره العالم سلطان المحيسن وعلى ضوء نتائج الأبحاث العلمية– يجب أن نؤكد أننا نعتقد بأن الإنسان بصفته وشكله الحالي لم يتطور عن القرود، وأن هذه لا يمكن أن تكون نماذج إنسانية أو بشرية بدائية، وهي لن تتطور نحو الإنسان كما يظن البعض. ولكن للقرود والإنسان صفات متشابهة تشير إلى انحدارهما من أصل واحد مشترك، ليس قرداً ولا إنساناً تفرعا عنه، وسار كل منهما في طريق منفصل[6].

وحتى الآن لم يستطع العلماء تبيان العلاقة التطورية بين الأنواع الثلاثة، وهي Homo – habilis وHome-erectus وأخيراً Homo-sapiens. ويعتقد علماء الإنسان القديم أن الهومو– إركتوس (Home-erectus) هو أقدم الأنواع التي خرجت من إفريقيا إلى آسيا وأوروبا. وعُثر على بقايا له في جزيرة جاوا في إندونسيا، وبعد ذلك في الصين، وأطلق عليه إنسان بكين. ويبدو أن هذا النوع قد تفاعل مع البيئة المحيطة به، فاهتدى إلى صناعة الأسلحة والأدوات الحجرية، وبخاصة البلطات والفؤوس اليدوية التي تعرف باسم (Bifaces) لدى علماء ما قبل التاريخ، وربما صنع أيضاً أدوات من الخشب والعظام، لكن لطبيعتها المتأثرة بالبيئة لم يصلنا منها أية أمثلة لفنائها. كما استفاد كثيراً من

الملاجئ والكهوف الصخرية الطبيعية، علماً أنه عُثر على بقايا أكواخ بسيطة قام ببنائها في بعض المناطق العالية؛ مثل حوض نهر العاصي في سوريا بآسيا وفي تنزانيا بإفريقيا وفي فرنسا بأوروبا. كذلك عرف هذا الإنسان النار؛ حيث عثر على دلائل تشير إلى هذا الأمر في كينيا، وتؤرخ لنحو مليون عام. ويبدو أن إنسان الهومو – إركتوس قد عاش في إطار الأسرة ضمن مجموعة قليلة العدد. وقد أطلق العالم الهولندي يوجين دوبوا (Eugene Dubois) مصطلح القرد المنتصب القامة (Pithecan thropus) بعد أن عثر في عام 1891 على عظمة فخذ كاملة تشبه تلك التي عند الإنسان المعاصر، إضافة إلى عظام أخرى. وبعد ذلك أطلق العلماء اسم Homo–erectus على جميع المستحاثات التي عثر عليها في مناطق مختلفة من العالم، ومن ضمنها إنسان الصين. ويمثل إنسان نياندرتال (Neandertal) المرحلة الانتقالية ما بين الإنسان الهومو–إركتوس والإنسان العاقل. ويبدو أن أقدم ظهور له كان قبل نحو مائة ألف عام (100,000) ، ويعد أكثر تطوراً من الهومو – إركتوس، سواء في تكوينه البيولوجي أو حتى في منجزاته الثقافية (شكل 3). وطبعاً اسمه مأخوذ من المنطقة التي وجدت فيها هياكله العظمية لأول مرة، وهي منطقة (Neanderthal) الواقعة قرب مدينة دوسلدورف الألمانية. وعلماً أن العلماء قد اختلفوا في بداية الأمر حول علاقته بالسلالات البشرية المعاصرة، لكنهم اتفقوا على اعتباره دليلاً على وجود نوع بشري قديم، يختلف عن الإنسان العاقل، ولكن تربطه معه علاقات تطورية معينة، ويمثل مرحلة أولى من مراحل Homo–sapiens، وأطلقوا عليه اسم Homo sapiens neanderthalensis [7].

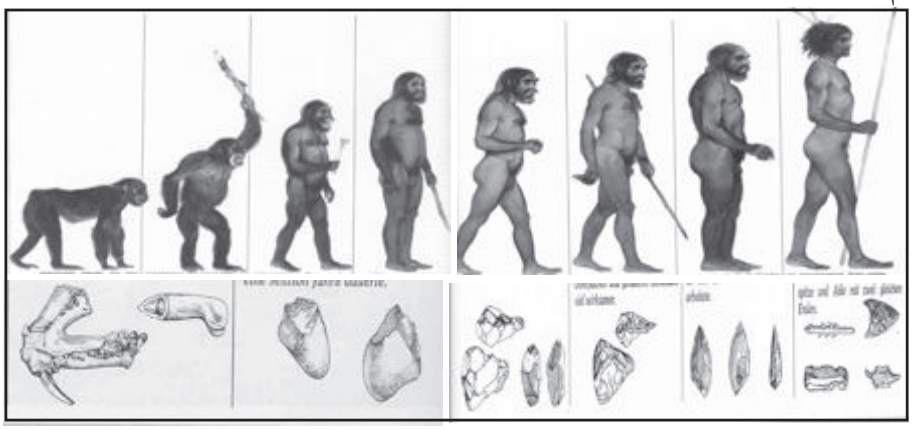

شكل 3: مقترح علماء الأنثروبولوجيا العضوية حول تطور الإنسان والأدوات التي استخدمها

وقد عثر على بقايا مماثلة لهذا الإنسان في عدة بلدان من العالم خاصة في فلسطين؛ حيث عثر على هياكل عظمية تخصه في مغاور وكهوف السخول والطابون والزطية والقفزة والعامود؛ وجميعها تقع في جبال الكرمل والجليل في شمالي فلسطين، وفي شانيدر في العراق، والديدرية في سوريا. كذلك عثر على هياكل عظمية له في أوروبا، وعلى هذا الأساس أطلق العلماء تسميات نياندرتال الأوروبي أو الكلاسيكي (البدائي) (Classical Neanderthal) على ما عثر عليه هنا، واسم نياندرتال الفلسطيني أو نياندرتال المتقدم(Progressive Neanderthal) على ما عثر عليه في فلسطين. ويبدو أن نياندرتال الأوروبي قد انقرض لأسباب ما، بينما تطور الفلسطيني إلى الإنسان العاقل، بحسب رأي العلماء.

ونتيجة للحفريات الأثرية في المواقع التي تؤرخ بين 100,000 و 40,000 ألف سنة، وهي الفترة التي ساد فيها إنسان نياندرتال، فقد توافر لدينا الكثير من المعلومات حول طبيعة حياته الاجتماعية والاقتصادية وحتى معتقداته. ويبدو أن النياندرتاليين قد استفادوا من الطبيعة على أفضل وجه، حيث لجؤوا إلى المغاور والكهوف الطبيعية بشكل خاص، إضافة إلى الإقامة في العراء لبعض الوقت في أماكن أخرى واستخدموا الأدوات الخشبية والعظمية إضافة إلى الحجرية. فمثلاً نجد أنهم قد صنعوا رؤوس الرماح والمكاشط والبلطات من مادة الصوان. وتشير رؤوس الرماح إلى وجود صناعة مركبة في هذه المرحلة؛ إذ لا بد من تثبيت رأس الرمح الحجري بعصا خشبية، وهذا يعني صناعة أداة مركبة. كما تدل هذه الصناعة على أن النياندرتاليين كانوا صيادين مهرة؛ إذ إنهم استطاعوا بواساطة الرماح قتل الحيوانات القوية والكبيرة الحجم، مثل الماموث ووحيد القرن والدببة، واستفادوا من لحومها وجلودها وعظامها؛ حيث عثر على عددٍ من إبر الخياطة المصنوعة من عظام هذه الحيوانات [8].

ومما يشير إلى التطور الثقافي لدى هذا الإنسان أنه قد دفن موتاه بعناية؛ إذ عثر على بعض من قبوره في بلاد الشام (مثلاً مغارة القفزة) وبلاد الرافدين (كهف شانيدر)، وكانت فردية في معظمها. ومما يذكر أنه قد رعى جماجم الأشخاص المدفونين بعناية خاصة؛ إذ إنه قام بدهان عظام الموتى باللون الأحمر [9]. وقد يكون هناك نوع من طقوس العبادة،

أو ربما لمعالجة مرض ما، والله أعلم. والسؤال الذي يطرح هنا: هل تشير هذه الأمور إلى الروحانيات لدى إنسان نياندرتال؟

ويعتقد العلماء أنه قبل نحو 40,000 أربعين ألف سنة ظهر الإنسان العاقل (Homo-sapiens-sapiens) وانتشر فوق معظم أرجاء العالم القديم، وبلغ هذا الإنسان درجة كبيرة من التقدم والرقي الفكري والاجتماعي والاقتصادي. إذ قام بابتكارات جديدة خاصة بعد التوصل إلى مرحلة الإنتاج والاستقرار في قرى زراعية، فبنى بيوتاً وحصن المدن وصنع أدواتٍ وأسلحة جديدة ومارس الفنون.

على أية حال، قدم العلماء عدة نظريات حول ظهور هذا الإنسان العاقل والتمايز العرقي بين أبنائه، فمنهم من قال إنه حلقة في سلسلة بدأت من الهومو- هابيل - الهومو - إركتوس - نياندرتال - الإنسان العاقل. أما بخصوص الاختلافات البيولوجية التي نراها الآن بين الجماعات الإنسانية المختلفة، فتعود إلى أنه، بعد أن قامت هذه الجماعات بالانتشار في بيئات مختلفة من العالم، قامت كل منها بالتكيف مع البيئة الطبيعية الجديدة، كل بحسب مقدرته البيولوجية. وبدأ منذ ذلك الوقت ظهور التنوع والتباين الإنساني[10].

لكن التطور الأهم الذي حصل خلال المرحلتين الأخيرتين من العصر الحجري القديم هو الذي حصل في المجتمعات البشرية، وخاصة اتصالها بعضها مع بعض، فقد عاش الناس على شكل مجموعات بشرية كبيرة، ودفنوا موتاهم بشكل مرتب، ووضعوا خططاً لصيد الحيوانات قبل صيدها. لقد أطلق العلماء اسم (العصر الحجري المتوسط Mesolithic) على نهاية عصر البلايستوسين؛ حيث صنّع الناس فيها أدوات حجرية، ومارسوا طرق معيشة تختلف كلياً عن طرق معيشتهم في المراحل السابقة. لكن لا بد لنا في هذا المقام من القول أن المتخصصين بدراسة العصور الحجرية في منطقة بلاد الشرق الأدنى يرون أن الإنسان الذي عاش في نهاية مرحلة البلايستوسين كان له امتداده في مرحلة الهولوسين اللاحقة من حيث طرق المعيشة وتقنية صناعة الأدوات وبعض أشكالها، وأطلقوا على هذه المرحلة اسم (المرحلة الانتقالية بين المجتمعات الجامعة للقوت وغير المستقرة والأخرى المنتجة له والمستقرة "Epi-Palaeoloithic").

ومن أهم الظواهر الثقافية في المرحلة الانتقالية بين المجتمعات اللاقطة والجامعة للقوت والمجتمعات المنتجة له (Epi-Palaeolithic) زيادة عدد المجموعات البشرية وحجمها، وظهور تقنيات جديدة في صناعة الأدوات الصوانية وأشكالها، وظهور صناعة أدوات الطحن والجرش، والمناجل، وصناعة الأدوات العظمية، وكذلك تخزين المواد الغذائية في حفر ،كما هو الحال في موقع عين الملاحة بشمالي فلسطين [11] . أما من الناحية الاقتصادية وطبيعة الغذاء؛ فقد تخصص الناس خلال هذه الفترة في صيد أنواع معينة من الحيوانات، وبخاصة الغزلان، كما أصبحت الثروة السمكية تشكل جزءاً من وجبتهم الغذائية، بدلالة العثور على عدد من صنانير(سنانير) صيد السمك. كما عُثر على عدد من القطع الفنية وبخاصة المنحوتة، التي تؤرخ لنهاية هذه المرحلة، وهي قد تشير إلى بعض المعتقدات الدينية.

إن هذا الإنسان العاقل الذي عاش في الفترة الانتقالية بين جمع الطعام وإنتاجه هو الإنسان نفسه الذي عاش مستقراً في قرى ثابتة راسخة، ومارس الزراعة ودجن الحيوانات وصنع في مرحلة لاحقة أوانيه وأدواته من الصلصال والمعادن على التوالي. كذلك مارس طقوساً وعقائد وعبادات، ربما لها صلة بالدين والتعبد، وتعرض لكثير من الأمراض والأوبئة.

أقدم بقايا الإنسان في بلاد الشرق الأدنى القديم

اتفق الدارسون على أن إنسان (Homo-erectus) غادر إفريقيا قبل نحو مليون ونصف المليون سنة؛ لينتشر على أجزاء أخرى من العالم. وأنه كان جامعاً للقوت وصياداً واستخدم أدوات بسيطة. كذلك ربما كانت عملية الاتصال بينه وبين أبناء جنسه تتم بواساطة لغة الإشارة، كما أن التنظيم الاجتماعي لديه كان بسيطاً. هذا مع العلم أننا لا نستطيع تقديم معلومات مؤكدة حول طبيعة التنظيم الاجتماعي لصعوبة الحصول على دلائل تثبت أو تشير إلى حدوث تغييرات جوهرية أو غير ذلك.

ومن أهم الشواهد التي حصل عليها العلماء من بلاد الشرق الأدنى القديم وأقدمها ما تم العثور عليه في موقع العبيدية بفلسطين. ويقع الموقع على بعد نحو 5 كم جنوب غربي

بحيرة طبريا، وقد عثر فيه على مجموعة كبيرة من الأدوات الحجرية البسيطة الصنع، التي زودتنا بمعلومات حول طبيعة الحياة في هذه المنطقة في المراحل الأولى من العصر الحجري القديم، وتؤرخ لنحو مليون ونصف المليون سنة من الآن على وجه التقريب.

لقد عاش الناس في هذا الموقع معتمدين على صيد الحيوانات التي كانت تردها لشرب الماء من بحيرة طبريا القريبة وعلى نباتات أخرى كانت تعيش في المنطقة نفسها. ولم يقتصر وجود الإنسان في المرحلة الأولى من العصر الحجري القديم (Lower Palaeolithic). كما تعرف المتخصصون في دراسة العظام الحيوانية، الذين درسوا مجموعة العظام من الموقع على عدد من أنواع الحيوانات كبيرة الحجم. وعلى أية حال، فإن وجود الناس خلال المراحل الأولى من العصر الحجري القديم لم يقتصر على سواحل المتوسط أو في منطقة حفرة الانهدام، ولكن نجد الأدوات التي استخدمها الإنسان منتشرة فوق مناطق أخرى من بلدان الشرق الأدنى القديم، كان منها ما اكتشف في منطقة وادي الزرقاء في الأردن[12]. كذلك يجب التنبيه على أنه لم يعثر حتى الآن على أية بقايا لعظام إنسانية تخص الإنسان الذي عاش في المرحلة الأولى من العصر الحجري القديم في المنطقة الممتدة من حفرة الانهدام في الغرب وباكستان في الشرق.

وأما إذا بحثنا عن شواهد حول وجود الإنسان في المنطقة الشرقية من بلاد الشرق الأدنى القديم، فإننا نصل إلى أن البقايا التي عثر عليها حتى الآن جاءت متأخرة عن تلك التي وجدت في العبيدية وحوض نهر العاصي في الغرب. وقد جاءت أقدم هذه البقايا من جبال زاغروس؛ حيث عثرت العالمة الإنجليزية دوروثيا غارود Dorothea Garrod (وهي بالمناسبة قد نقبت في عدد من المواقع في جبال الكرمل والجليل بفلسطين) في عام 1928 في موقع يسمى هزارمرد (Hazar Merd) في جبال كردستان على أدوات حجرية تؤرخ للمرحلتين الثانية والثالثة من العصر الحجري القديم (Middle and Upper Palaeolithic). كما عثر في مواقع زارزي (Zarzi) في المنطقة الجبلية نفسها في شمالي العراق على أدوات تؤرخ للمرحلة الثالثة للعصر الحجري القديم، وكذلك المرحلة الانتقالية (Epi-Palaeolithic)[13].

قامت بعثة أمريكية برئاسة كل من روبرت بريدود (Robert Braidwood) ورالف سوليكي (Ralph Solecki) بالتنقيب في كهف شانيدر الشمالي العراق، وبعثة أخرى

بإشراف فرانك هول (Frank Hole) وكنت فلانري (Kent Flannery) بالبحث الميداني في منطقة خورام – أباد (Khorram Abad) في إيران [14].

استعرضنا في الصفحات السابقة موضوعات عدة قد يرى بعض القراء أن لا علاقة لها بموضوع البحث الذي يركز على إعطاء أمثلة حول بعض الأمراض التي وجدت خلال العصور الحجرية. لكننا نود أن نؤكد أن البيئة التي يعيش فيها الإنسان ربما تكون هي الداء والبلاء؛ فمثلاً ينتشر مرض الملاريا في مناطق المستنقعات، فإن وجود الناس في بيئة كهذه، فإنهم معرضون بطبيعة الحال للإصابة بهذا المرض. كذلك وجدنا أنه من الواجب أن نقدم لمحة بسيطة عن هذا الإنسان الذي تعرض لهذه الأمراض، وكيف تعامل معها، وبهذا نستدل على مدى تقدمه الفكري. ولأجل هذا كله، نقدم أدناه موجزاً لثلاث حالات مرضية من منطقة شرقي البحر المتوسط مرتبة من الأقدم إلى الأحدث.

أ- مرض شلل في كهف شانيدر

يقع كهف شانيدر على السفوح الغربية لجبال بارادوست في إقليم كردستان (شكل 4)، المطلة على وادي شانيدر، وعلى مسافة غير بعيدة من نهر الزاب الكبير، أحد روافد نهر دجلة. وتبلغ مساحة أرضية الكهف نحو 1,000 ألف م^2، وأما سُمك التراكمات بداخله فهو نحو 13م.

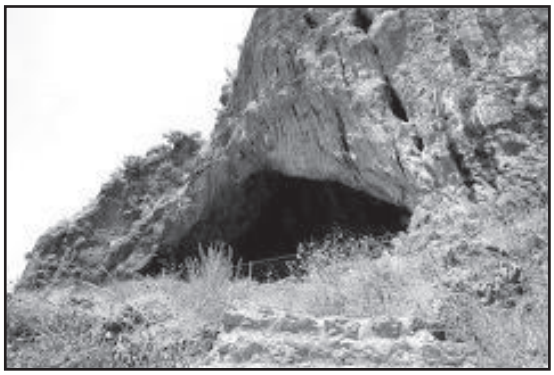

شكل 4: مدخل كهف شانيدر (عن الانترنت)

قام فريق من جامع كولومبيا الأمريكية بقيادة عالم الأنثروبولوجيا العضوية رالف

سوليكي (Ralph Solecki) في الفترة بين 1951 و1960م بالتنقيب في كهف شانيدر، وعثرت البعثة على بقايا لعشرة هياكل عظمية لإنسان نياندرتال، ثمانية منها لبالغين واثنان لطفلين، وتؤرخ هذه جميعها للفترة بين نحو 65000 و35000 سنة من الوقت الحاضر، إضافة إلى عدد من الأدوات الصوانية. كما تم الكشف في مرحلة لاحقة عن عدد آخر من القبور (بلغ عددها 35 قبراً) تؤرخ لنحو 10600 سنة من الآن[15]. ويعدّ المدفنان شانيدر 1 وشانيدر 4 (المشهور باسم مدفن الزهور) متميزين عن بقية المدافن؛ لأن صاحبيهما تعرضا في حياتهما لإجراء بعض العمليات الجراحية.

بناء على دعوة من حكومة كردستان العراق قامت Graeme Barker من جامعة كامبريدج في عام 2011م بزيارة الكهف؛ بهدف جمع عينات من التربة التي دفن فيها الناس للبحث فيها عن حبوب لقاح لتعرف أنواع الأزهار والنباتات التي كانت موجودة.

شكل 5: تراكم الطبقات الترابية داخل كهف شانيدر (عن الانترنت)

بعد دراسة المخلفات التي عثر عليها بداخل هذه التراكمات والتتابع الطبقي لها (شكل 5)، قسمها المنقب سوليكي زمنياً إلى أربعة مستويات، وعلى النحو التالي من الأقدم إلى الأحدث:

- المستوى (د) Level D : عُثر في هذا المستوى على عدد من الأدوات الصوانية والهياكل العظمية، أرخت جميعها للمرحلة الثانية من العصر الحجري القديم(Middle Palaeolithic) .

- المستوى ج (Level C) : ويؤرخ للمرحلة الثالثة من العصر الحجري القديم (Upper Palaeolithic)، وأطلق على الأدوات التي عثر عليها في هذا المستوى اسم "البارادوستيه" .

- المستوى (ب) (Level B) : وقسمه المنقب إلى قسمين فرعيين، هما : المستوى ب، (Level B) : وقسمه المنقب إلى قسمين فرعيين، هما :

1 – المستوى ب2 (Level B2) وهو الأسفل وأرّخ للمرحلة الانتقالية (Epi–Palaeolithic)، وهو معاصر للثقافة الزارزية .

2 – المستوى ب1 (Level B1)، وهو الأعلى ويؤرخ للمرحلة السابقة للعصر الحجري الحديث (Proto–Neolithic) . كما عثر في المستوى (B1) على عدد من الحفر التي ربما استخدمت للتخزين، وعلى بقايا صف من الحجارة بني على شكل قوس، وعلى مقبرة بها ستة وعشرون (26) هيكلاً عظمياً .

- المستوى أ (Level A) : وهذا المستوى يمثل الطبقة العليا من التراكمات بداخل الكهف وعثر بداخله على بقايا يراوح تاريخها من العصر الحجري الحديث إلى الوقت الحالي .

يعد الدماغ مُصدّر الأوامر للجهاز العصبي الإنساني ؛ فهو الذي يتلقى إشارات من أعضاء جسم الإنسان ومن ثم يصدر الأوامر للجهاز الحركي ؛ أي العضلات . وتتعطل عضلات الجسم عن الحركة في الوقت الذي لا تتسلم فيه أوامر من الدماغ . ويمكننا القول إن السبب في عدم التواصل أو الانقطاع في إعطاء الأوامر بين الدماغ وبقية أجزاء الجسم هو خلل أو مرض في الجهاز العصبي للإنسان، وخاصة النخاع الشوكي . ومن الأسباب المؤدية للإصابة بالشلل : الجلطات، والضربات القوية، وجراحة الأعصاب، وشلل

الأطفال "أي مع الولادة"، والتهاب الأعصاب الحاد، والشلل الدماغي، والاعتلال العصبي المحيطي، والتصلب الجانبي الضموري، وتشقق العمود الفقري، والتصلب اللويحي. واستطاع العلماء تعرف أنواع من الشلل، وهي على النحو الآتي:

1 – شلل أحادي Monoplegia.

2 – شلل نصفي عمودي Hemiplegi.

3 – شلل نصفي أفقي Paraplegia.

4 – شلل ثلاثي Trilegia.

5 – شلل رباعي Quadriplegia.

وبناء على الدراسات العلمية التي جرت على الهياكل العظمية من كهف شانيدر، نقدم أدناه موجزاً لما نشره المتخصصون في الدوريات والكتب المتخصصة حول المدفنين شانيدر 1 وشانيدر 4:

تبين أن صاحب المدفن "شانيدر 1" هو أكبر المدفونين سناً، ويراوح عمره بين 30 و45 سنة، وسعة تجويفه الدماغي 1600سم^3، ويبلغ طوله نحو 160سم، وكان يعاني من تشوه خلقي بسبب ضربة وجهت إلى جسده، وهو واحد من أربعة هياكل عظمية عانت من اعتلال جسدي بسبب العنف[16]. ويظهر أن صاحب المدفن رقم 1 عانى في حياته من ضربة على وجنته اليسرى (شكل 6)؛ مما أدى إلى إصابة بليغة في حجرة العين اليسرى؛ مما أدى إلى عماه بهذه العين إضافة إلى تهتك في الأسنان، وفقده للسمع في الأذن اليسرى[17]. ويبدو أن هذا المدفون، الذي كان في العقد الخامس من عمره عند وفاته، قد عانى من شلل نصفي في جانبه الأيمن. ويذكر الأطباء أن الجسم، في العادة، يصدر إشارات إلى المنطقة المعرضة للإصابة بالشلل قبل حدوثه؛ مثل، التشنجات والوخز والتصلب في العضلات والنطق غير الصحيح، وصعوبة في المضغ والبلع، وضعف في العضلات، ويمكن أن تتطور الأمور بعدها إلى شلل في الجزء المصاب.

شكل 6: جمجمة واستبناء لجسم إنسان شانيدر 1 (عن الانترنت)

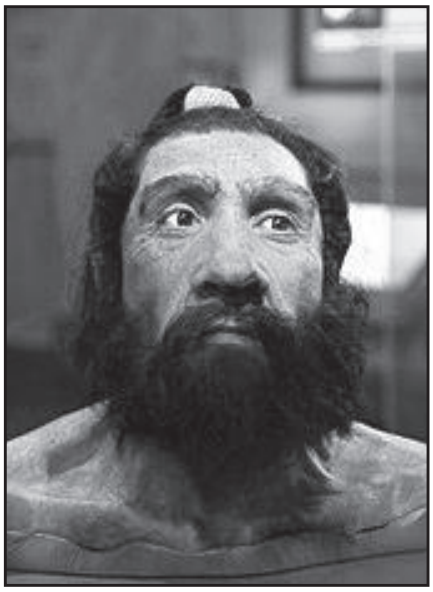

وذكر المتخصصون في دراسة جسم الإنسان أن هذا المصاب بالشلل (شانيدر1) كان قد أصيب في الفقرة الخامسة من عموده الفقري، إما خلقياً وإما بسبب ضربة قوية؛ مما أدى إلى ضمور وضعف في عضلات ذراعه اليمنى. ولاحظ العلماء وجود آثار حزوز على بقايا عظام ذراعه اليمنى نتيجة لإجراء عملية قص العظام؛ مما أدى إلى بترها [18]. فإذا كان الأمر هكذا، ونجحوا في بتروها عن عمدٍ، وسبق إصرار، فإنها ستكون أولى العمليات الجراحية التي أجريت على جسم النياندرتال (الإنسان) في العالم.

وعلى الرغم من تعافي الذراع اليمنى، فإن هذه العملية سببت شللاً للجانب الأيمن لهذا الشخص، بعد أن تسلل الشلل بسبب الآثار الجانبية لقطع الذراع إلى رجله وقدمه. وأشارت الدراسات الحديثة التي أجريت على الهيكل العظمي أن الشخص نفسه كان قد عانى أيضاً من كسور في ساقيه [19]. كل هذه الأمراض تدل على أن هذا الشخص لم يكن قادراً على الاعتناء بنفسه وتأمين مأكله، وحتى يستمر على قيد الحياة كان لا بد من تضامن وتكافل لأبناء مجتمعه معه، وكان هذا قبل نحو خمسين ألف سنة (أقل أو أكثر).

يعدّ مدفن شانيدر 4، الذي اكتشف عام 1960م على يد سوليكي، أشهر مدافن هذا الكهف، وسمي بـ "مدفن الزهور"؛ لأن الناس نثروا الورود على المدفون حين دفنه. ويؤرخ هذا المدفن لفترة تراوح بين نحو 80 ألفاً وستين ألف سنة من الوقت الحاضر[20]. ويخص الهيكل العظمي في هذا الكهف ذكراً راوح عمره بين 30 و45 عاماً، وقد سجي على جانبه الأيسر في القبر، بوضع أقرب إلى القرفصائي (شكل 7). رأي المنقب بعد اكتشاف المدفن، وتعرف الإصابة في الهيكل العظمي وطريقة الدفن، وتغطية القبر بالورود (شكل 8)، أن هذا الأمر يعكس عقائد إنسان نياندرتال؛ إذ قام المنقبون بجمع كمية لا بأس بها من حبوب الطلع في محاولة لاستبناء البيئة القديمة في منطقة الكهف، وتم تحليلها بعد مضي ثماني سنوات على جمعها من المدفن وتعرف أن جميعها تخص أنواعاً من الورود[21]؛ ومن ثم أدى هذا إلى أن المنقب رأى أن هذا الشخص المدفون ربما كان ذا قوة سحرية تساعد على شفاء المرضى: (Shamanic Powers) [22].

شكل 7: الهيكل العظمي لمدفن 4 (عن الإنترنت)

وعلى الرغم من هذا المقترح، فإن الدراسات الحديثة حول وجود حبوب طلع

الورود داخل المدفن أشارت إلى أن وجودها كان عن طريق الجرذان والفئران، ولم تكن موضوعة بطريقة متعمدة [23]. وفي نظرنا، فإن الاعتناء بشخص مشلول ليعيش عمراً يتجاوز الأربعين عاماً في مجتمع عاش قبل نحو خمسين ألف عام يدل على تضامن وتكافل بين أفراد المجتمع.

شكل 8: تصور لنثر الورود فوق قبر المتوفى والذي عاش مشلولاً (عن الإنترنت)

بهذا لا ننهي الحديث عن نوع المرض الذي ساد مجتمع النياندرتال في جبال كردستان العراق قبل أكثر من خمسين ألف سنة فقط، وإنما توضح أيضاً طبيعة العلاقات الإنسانية التي كانت سائدة بين أفراد المجموعة، من حيث التكافل في الضراء والسراء.

2 - مرض النزيف الدماغي في تل السلطان/ أريحا (Brain hemorrhage)

اهتم الآثاريون، وبخاصة التوراتيون منهم، بالتنقيب في موقع تل السلطان/ أريحا في فلسطين (شكل 9)؛ وذلك لورود ذكر له في النصوص التوراتية. وبناء عليه، ومنذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وحتى الآن، جرت فيه مجموعة من الحفريات الأثرية، من أهمها حفرية الضابط الإنجليزي جون غارستنج الذي نقب في الموقع بين عامي 1929و1936م[24]، وحفرية كاثلين كنيون العالمة الإنجليزية التي تابعت التنقيب في الموقع نفسه في الفترة بين عامي 1952 و1958م [25]؛ كون القائمين عليهما قد عثروا

على جماجم إنسانية، وأجزاء من تماثيل بشرية تعود في التاريخ إلى العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار "أ" و "ب" (نحو 8500 – 7000 قبل الميلاد)، علماً أن لورنزو نيجرو اقترح تواريخ مختلفة . PPNB 8000–6000 BC ، PPNA 9000–8000 (Nigro 2017 : 4) ، وعثرت البعثة الإيطالية من جامعة روما لاسبينزا في عام 2006م، التي تتابع التنقيب في الموقع منذ عام 1997م حتى الآن على جمجمة أخرى، وبهذا يكون عدد الجماجم المفصولة عن الأجساد والمكتشفة في تل السلطان في أريحا 45 جمجمة، تخص رجالاً ونساءً (شكل 10) (Nigro 2009 : 6 ، 34–35).

شكل 9 : منظر عام لتل السلطان في أريحا (عن الإنترنت)

ومن المعلوم أنه قبل عام 1967م كانت أريحا واحدة من مدن المملكة الأردنية الهاشمية؛ وبناء عليه كان يتم نقل بعض المكتشفات الأثرية من مواقع الضفة الغربية إلى المتحف الوطني للآثار في عمان؛ ومن ثم تم نقل خمسة جماجم من بين خمس وأربعين جمجمة اكتشفت في تل السلطان/ أريحا، إلى هذا المتحف. واكتشفت هذه الجماجم في طبقات العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار "ب"، وتخص جميعها ذكوراً [26].

شكل 10: مجموعة من الجماجم التي اكتشفت في تل السلطان/ أريحا
(بإذن من Lorenzo Nigro)

وكانت جميع هذه الجماجم الخمس مغطاة بطبقة من القصارة (البلاستر) كغيرها من الجماجم المكتشفة في كثير من مواقع العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار "أ" و "ب". ومن المعلوم أنه من العادة تغطية الجماجم بطبقة من القصارة قد تم تعرّفها لأول مرة في موقع عين السلطان في أثناء حفريات جون غارستنغ، وبعدها في حفريات كاثلين كنيون، وبعدها في مواقع أخرى في بلاد الشام (شكل 11).

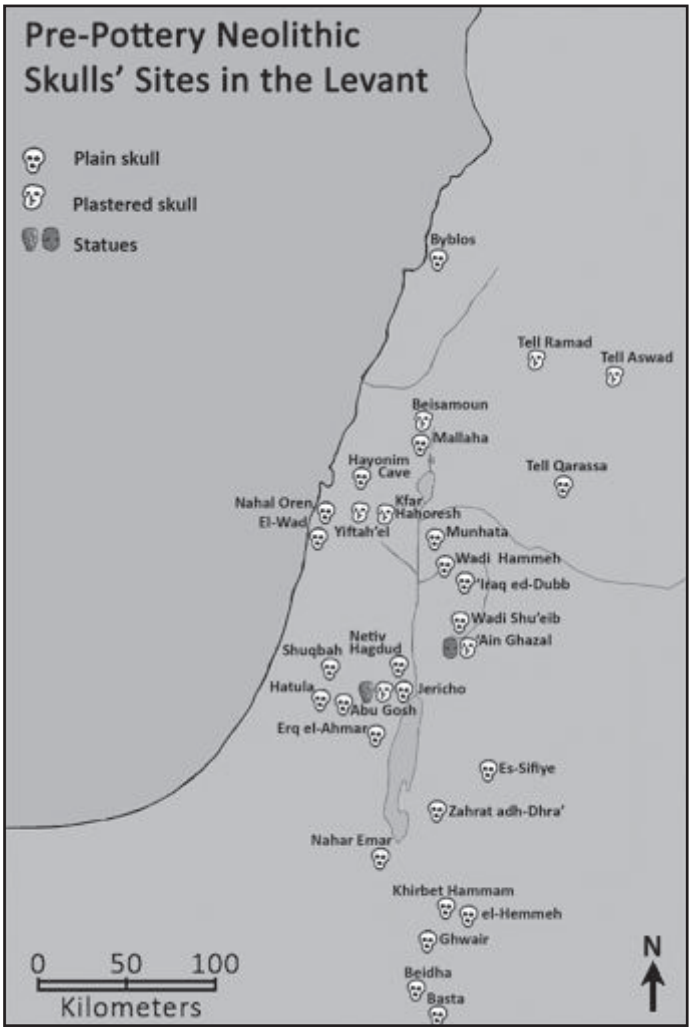

شكل 11: مواقع الجماجم في بلاد الشام (after Nigro 2017: Fig. 1)

وجاءت واحدة من بين هذه الجماجم، وبناء على ملاحظة شخصية من كاتب هذا البحث، مثقوبة بأكثر من ثقب في منطقة الرأس العليا (Parietal Lobe)، وهي معروضة في المتحف الوطني للآثار المبني على جبل القلعة بعمان. إلا أنه –للأسف، وبعد مراجعة معظم، إن لم يكن جميع، ما وقع بين أيدينا من الأبحاث المتعلقة بدراسة هذه الجماجم– لم يشر أحد إلى هذا في دراسته. من هنا، فإننا نعتمد في المعلومات الواردة هنا على ذاكرة

الكاتب عندما عمل أميناً للمتحف الوطني للآثار/ جبل القلعة عام 1972م. وقد سألنا أنفسنا سؤالاً: لماذا اضطر الناس لثقب جمجمة هذا الشخص؟ وفوراً خطر ببالنا النزيف الدماغي. لذا، فإن هذا الاستنتاج لا يقوم على أي أساس علمي. كذلك فإننا لن نتعرض في هذا المقام لدراسة الهدف أو الغرض الذي قام الناس في العصر الحجري الحديث بفصل الرأس عن الجثة وتغطية بعض الجماجم بطبقة من القصارة، فقد تمت دراسة هذه الموضوعات بالتفصيل (Nigro 2017) [27]. لكننا نرى أن ثقب الجمجمة كان بسبب نزيف حصل في الدماغ، والله أعلم. وبناء عليه؛ نقدم أدناه موجزاً عن هذه الحالة المرضية.

جمجمة مكتشفة في تل السلطان/ أريحا بثلاثة ثقوب معروضة في المتحف الوطني للآثار/ جبل القلعة –عمان (تصوير نبيل عبد الرحمن/ دائرة الآثار العامة)

يعدّ مرض النزيف الدماغي أحد الأمراض التي تسبب السكتة الدماغية الناتجة عن انفجار أحد الشرايين المغذية للدماغ الذي يؤدي إلى نزيف موضعي في الأنسجة المحيطة؛ مما يسبب تلفاً لخلايا الدماغ. وهناك عدة أسباب للنزيف الدماغي، أكثرها هي:

- ضربة على الدماغ .
- ضغط الدم العالي .
- توسع الأوعية الدموية في الدماغ .
- تشوهات خلقية في الأوعية الدموية .
- سرطان الدماغ .
- خلل في تخثر الدم .
- أسباب أخرى .

كما أن أعراض النزيف الدموي في الدماغ متعددة، وتعتمد على موضع النزف وحدته، ومساحة الأنسجة المتأثرة بعملية النزف . ويمكن أن تظهر أعراض النزيف الدماغي بشكل مفاجئ أو بشكل تدريجي . وتشمل هذه الأمراض الصداع الحاد، ولعيان النفس والاستفراغ، والتشنجات، وضعف في الأطراف، وتحول في الرؤية .

وأما المرض الثالث الذي نستعرضه أدناه؛ فهو "مرض السل" .

3 - مرض السل في العصر الحجري الحديث من موقع عين غزال Tuberulosis at 'Ain Ghazal, Jordan:

يقع موقع عين غزال المؤرخ للعصر الحجري الحديث على الطرف الشرقي للعاصمة عمان، مباشرة على الطريق الرئيسي الواصل بين العاصمة ومدينة الزرقاء. وخلال مدة ألفي سنة وأكثر تعرض الموقع لتطورات متعددة في العمارة والاقتصاد وصناعة الأواني والأدوات، وعدد السكان . واستطاع المنقبون تعرف عدد من الفترات الفرعية، وهي المرحلة المتوسطة من العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار "ب" (نحو 7250 – 6500 ق . م .)، والمرحلة المتأخرة من العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار "ب" (نحو 6500 – 6000 ق . م .)، والعصر الحجري الحديث ما قبل الفخار "ج" (نحو 6000 – 5600 ق . م .)، والعصر الحجري الحديث الفخاري (نحو 5600 – 4500 ق . م .) [28].

بني الموقع على منحدرات ضفتي نهر الزرقاء الشرقية والغربية في منطقة ترتفع

نحو 720 متراً عن مستوى سطح البحر، وبالقرب من عين ماء "عين غزال" الدائمة الجريان[29] . . ويتمركز الموقع في منطقة متوسطة بين البادية في الشرق والمرتفعات الجبلية في الغرب في منطقة تتوافر فيها عوامل الاستقرار الدائم (شكل 12). وأثبتت الدراسات الجيومورفولوجية لحوض وادي الزرقاء؛ حيث أسس الموقع، على تنوع في تضاريس المنطقة وطبيعة الأرض فيها، وهذا يعني تنوع الغطاءين النباتي والحيواني وتعددها [30].

شكل 12: منظر عام لموقع عين غزال في ثمانينيات القرن الماضي (أرشيف عين غزال)

تم العثور في أحد البيوت المؤرخة للمرحلة الأخيرة من العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار "ب" Late Pre–Pottery Neolithic B على كميات كبيرة من حبوب العدس والحمص، وثلاثة عشر قرن غزال. وذكر المنقبون في عين غزال أنه خلال ثمانينيات القرن الفائت تم العثور على 75 هيكلاً عظمياً بشرياً وعدداً من الجماجم البشرية المفصولة عن الأجساد (شكل 13) في المستويات التي تؤرخ للعصر الحجري الحديث ما قبل الفخار "ب" [31] . . وأضاف عيسى الصريع، أنه قد تم العثور في المواسم اللاحقة على 31 هيكلاً عظمياً آخر تؤرخ للعصر الحجري الحديث ما قبل الفخار "ب"، أرخت لنحو 9250 من الوقت الحاضر[32]. ومن بين هذه المجموعة من الهياكل العظمية تُعرّفت على ثلاث جماجم عثر

عليها مجتمعة في المربع رقم 3681 في المنطقة المركزية للموقع (Central Field).

كما وجد في الحارة الجنوبية (South Field) المربع رقم 4453 بقايا عظمية بشرية أخرى من بينها فقرات لثلاثة أشخاص تحمل مرض السل (شكل 14). وتبرز أهمية تشخيص هذه البقايا العظمية البشرية على أنها ربما تمثل أقدم حالة سل في العالم تكتشف حتى الآن، وتعود إلى الفترة بين 6000 و5600 قبل الميلاد. كما أنها حصلت في الوقت

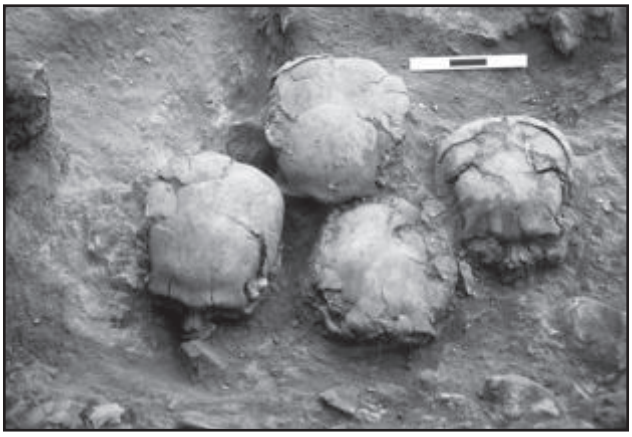

شكل 13: عدد من الجماجم المفصولة عن الأجساد (أرشيف عين غزال)

شكل 14 : ثلاث جماجم مع العظام عثر عليها في الحارة الجنوبية وتؤرخ للفترة بين نحو 6000 و5600 قبل الميلاد (أرشيف عين غزال)

الذي دجن فيه الإنسان الحيوانات لأول مرة في منطقة جنوبي بلاد الشام، وكان قبلها قد عرف الزراعة. أي أن مرض السل حدث في البدايات الأولى لمرحلة إنتاج الطعام والاستقرار الدائم في القرى، قبل نحو أكثر من تسعة آلاف عام.

وجاءت الحالة الأولى تخص رجلاً بالغاً، عمره 30 عاماً، وعند العثور على هيكله العظمي وجد في حالة جيدة، عدا فقرات العجز التي كانت متهتكة. وأما الحالة الثانية؛ فكانت لشخص يبلغ من العمر بين 20 و25 عاماً من العمر، ولم يستطع الباحثون تحديد جنسه. وتخص الحالة الثالثة والأخيرة أنثى زاد عمرها على الأربعين عاماً [33].

الخاتمة

قدمنا في هذا البحث معلومات موجزة عن ثلاثة أنواع من الأمراض التي تم تعرفها من عصور ما قبل التاريخ، الأول هو الشلل لشخص نياندرتالي (أي قبل ظهور الإنسان العاقل) دفن قبل أكثر من خمسين ألف عام في كهف شانيدر في جبال كردستان بشمالي العراق، وقد بترت ذراعه وتعرض بعدها لشلل نصفي. وتدل هذه الحالة على معرفة متقدمة بكيفية التعامل مع الحالات المرضية الإنسانية، فكيف نسمي هذا الإنسان بغير العاقل؟!

وأما الحالة الثانية فكانت من موقع تل السلطان/ أريحا في فلسطين، حيث عثر على عدد من الجماجم البشرية تعود لنحو عشرة آلاف عام من الوقت الحاضر، وقد وجدت مدفونة دون أجسادها، وكانت واحدة منها تحمل ثقوباً في أعلاها مما جعلنا نعتقد أن حفر هذه الثقوب كان مقصوداً للتخلص من نزيف في الدماغ، والله أعلم.

أما الحالة الثالثة؛ فكانت اكتشاف ثلاث حالات سل، تعود إلى ما قبل نحو تسعة آلاف عام في موقع عين غزال في شرقي العاصمة عمّان. وجاء هذا التشخيص بناء على دراسة قام بها ثلاثة من متخصصي الأنثروبولوجيا العضوية. وتعدّ هذه الحالات المكتشفة هي الأقدم في العالم، حتى الآن.

إن دراسة مثل هذه الحالات تدلنا على أنواع الأمراض والأعراض المرضية التي

شاعت بين أناس عصور ما قبل التاريخ؛ ففي الفترة التي عاش فيها الإنسان متنقلاً وجامعاً لقوته تعرض للعنف، مثل ضربة على وجه أحد الهياكل العظمية في شانيدر، لكننا لا نعرف الأمراض التي كانت سائدة في شرقي المتوسط في زمن الكائن نياندرتال.

على أية حال، ليس الهدف من هذه الدراسة ومن شخص متخصص في الآثار البحث في الأمراض وماهيتها، بل إعطاء فكرة حول المعرفة الإنسانية بكيفية التعامل ما يصيبة من أعراض مرضية. في الأولى بتر اليد، وفي الثانية ثقب الجمجمة، أما الثالثة؛ فربما تدل على أن مرض السل كان وباءً قبل نحو تسعة آلاف عام انتشر بين الناس.

شكر وعرفان

أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذة الدكتورة سعاد عبدالوهاب عميدة كلية الآداب على دعوتي للمشاركة في هذا المؤتمر الذي يعد الأول من نوعه، ولولا إصرارها لما ظهر هذا البحث إلى النور. كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ الدكتور لورنز نيغرو (Lorenzo Nigro) من جامعة روما لتزويدي بالصور والمعلومات عن تل السلطان/ أريحا. ويستحق الثناء ووصل الشكر أخي وصديقي الدكتور عمر الغول الذي قرأ وحرر النص وأبدى الملاحظات عليه.

الهوامش والمراجع

(1) -Butzer, K. W.: **Archaeology as Human Ecology: Method and Theory for a Contextual Approach**. Cambridge: Cambridge University Press, 1994, pp. 266-278.

(2) -Leaky, Lewis S. B: **Olduvai Gorge 1951-1961**. Cambridge: Cambridge University Press, 1962.

(3) المحيسن، سلطان: **عصور ما قبل التاريخ**، دمشق: جامعة دمشق، 2001، ص21.

(4) عصور ما قبل التاريخ، ص 41.

(5) الحداد، محمد؛ النجار، محمود: **الأنثروبولوجيا**، الكويت: مطبعة دار السلاسل، 1987.

(6) المحيسن، سلطان: **بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ. الصيادون الأوائل**، دمشق: الأبجدية للنشر، 1989، ص30-34.

(7) Olduvai Gorge 1951-1961.

(8) كفافي، زيدان: **بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ**. في كتاب الوحدة الحضارية للوطن العربي من خلال المكتشفات الأثرية. المؤتمر الخامس للآثار والتراث الحضاري في الوطن العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دمشق ٢٧/ ٣-٢/ ٤ / ٢٠٠٠، ص ص٥١-١١٦.

(9) بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ. الصيادون الأوائل، ص103.

(10) النجار، محمود: **التكيف والتنوع الإنساني**، إربد: مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، 2004.

(11) - Perrot, Jean: '"Enan". in E. Stern, A. Lewinson-Gilboa and J. Aviram (eds.), **The New Encyclopedia of Archaeological Excavations in the Holy Land.** Vol. 2. New York: Simon & Schuster, 1993, pp.389-393.

(12) - Parenti, F. et allii: Early Acheulean Stone Tools and Fossil Faunas from the Dauqra Formation, Upper Zarqa Valley, Jordanian Plateau in H. G. K. Gebel, Z. Kafafi and G. O. Rollefson (eds.). **The Prehistory of Jordan II. Perspectives**. Berlin: ex oriente, 1997, pp. 7-23.

(13) - Solecki, R. S.: **An Early Village Site at Zawi Cheme-Shanidar. Bibliotheca Mesopotamica**. Malibu: Undena Publication, 1980.

(14) - Hole, F. and Flannery, K. V.: The Prehistory of Southwestern Iran: A Preliminary Report. **Proceeding of the Prehistoric Society** 33, 1967, pp. 147-170.

(15) - Solecki, Ralph S.; Rose L. Solecki & Anagnostis P. Agelarakis: **The Proto-Neolithic Cemetery in Shanidar Cave**. Texas A&M University Press, 2004, pp. 3-5.

(16) - Barry, Lewis, R., et al.: **Understanding Humans: Introduction to Physical Anthropology and Archaeology.** Wadsworth, 2013.

(17) - Lietava, Ján: “A Differential Diagnostics of the Right Shoulder Girdle Deformity in the Shanidar I Neanderthal”. **Anthropologie 26** (3), 1988, pp.183-196.

(18) - “A Differential Diagnostics of the Right Shoulder Girdle Deformity in the Shanidar I Neanderthal”, p. 183-196.

(19) - Understanding Humans: Introduction to Physical Anthropology and Archaeology.

(20) - Solecki, Ralph S.: “Shanidar IV, a Neanderthal Flower Burial in Northern Iraq”. **Science**, vol. 190, iss. 4217, 1975, pp. 880-881.

(21) - Stewart, T. D.: "Shanidar Skeletons IV and VI", **Sumer**, vol. 19, 1963, pp.8-26.

- Leroi-Gourhan, Arlette: “Shanidar et ses fleurs”, **Paléorient** 24, 1998, pp.79-88.

(22) "Shanidar Skeletons IV and VI", pp.8-26

(23) - Sommer, D.J.: "The Shanidar IV ‘Flower Burial’: a Re-evaluation of Neanderthal Burial Ritual”, **Cambridge Archaeological Journal**, vol. 9 (1), 1999, pp.127-129.

(24) - Garstang, John: “City and Necropolis (Fifth Report)”, **Liverpool Annals of Archaeology and**

Anthropology 22, 1935a, pp.143-184; Garstang, John: L'art neolithique a Jericho. **Syria** 16, 1935b; pp.353-357.

- Kenyon, K. M.; Holland, Thomas. A. (eds.): **Excavations at Jericho V. The Pottery Phases of the Tell and Other Finds**, London, 1983, pp.51-54. (25)

- Kenyon, Kathleen, M.: 1970; **Archaeology in the Holy Land. 3rd Edition,** London: Ernest Ben Limited, 1970, pp.51-54; Strouhal, Eugen: "Five Plastered Skulls from Pre-Pottery Neolithic B Jericho: Anthropological Study", In: **Paléorient**, 1973, vol. 1/ 2: pp. 231. (26)

- Bienert, Hans-Dieter: "Skull Cult in the Prehistoric Near East", **Jounal of Prehistoric Rel** 5, 1991, pp.9-23; M. Bonogofsky: "Cranial modeling and Neolithic bone modification at 'Ain Ghazal: new interpretations", **Paleorient** 27, 2, 2001, pp. 141-146. (27)

- Rollefson, Gary; Kafafi, Zeidan: "The Town of 'Ain Ghazal", in Denise Schmandt-Bessarat (ed,), Symbols at 'Ain Ghazal**. 'Ain Ghazal Excavation Reports, Vol. III.** Berlin: ex oriente, 2013, pp. 3-29. (28)

- The Town of 'Ain Ghazal. (29)

- Simmons, Alan; Köhler-Rollefson, Ilse; Rollefson, Gary; Mandel, Rolf and Kafafi, Zeidan: "'Ain Ghazal A Major Neolithic Settlement in Central Jordan", **Science** 240:, 1988, pp.35-39. (30)

- Rollefson, Gary; Simmons, Alan: 1988; "The Neolithic Settlement at 'Ain Ghazal", in Andrew Garrard and Hans Georg Gebel (eds.) The Prehistory of Jordan. The State of Research in 1986. **BAR International Series (396)**. Oxford, 1988, p.410. (31)

- Cases of Tuberculosis at 'Ain Ghazal, Jordan", p.124; Al-Sarie, Issa: Subsistence and Diet **of** **'Ain Ghazal Inhabitants as Inferred from Analysis of Human Dentition**. Unpublished MA Thesis Submitted to the Department of Anthropology, Yarmouk University, 1995. (32)

- El-Najjar, Mahmoud; Al-Shiyyab, Abdl Halim; Al-Sarie, Issa: "Cases of Tuberculosis at 'Ain Ghazal, Jordan", **Paléorient** 22/2, 1997, pp.124 (33)